



مراجعة كتاب ...

"Splendours of Morocco"

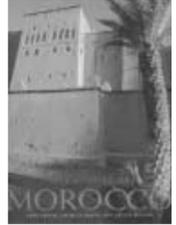
By: Izza Genini (et al)

Publisher: Tauris Parke Books - London - New York 2000

لوناورد - لندن

يستعرض هذا الكتاب بشكل شامل - وربما لأول مرة - مجده في كتب العمارة - مناحي الحياة الثقافية والاجتماعية والبيئية للمملكة المغربية، وتشمل هذه المناحي جميع المتعلقات بالثقافة المغربية حسيًا، إذ يتركز على البيئة المبنية والعمران كإبراز الجوانب التي لا بد من التطرق إليها، ومن هنا فإن الكتاب وعدسات المصورين لم تغفل أبداً عن المنحى التقليدي التي تعج بها المملكة المغربية ابتداءً من فاس ومكناس ومراكش والرباط، وطنجيتر وغيرها بالإضافة إلى ذلك تلقي عدسات الكاميرات بظلالها على جوانب من الحياة الاجتماعية بما في ذلك أسلوب المعيشة والعادات والتقاليد والملبس والشرب، مما يميز هذا الكتاب حيث يمكن أن يوصف بأنه شامل من حيث استعراضه للثقافة العربية الإسلامية في المملكة المغربية.

أبرز ما يشد الانتباه لدى مطالعة هذا الكتاب هو الصور البديعة الأخاذة لمختلف مناحي الأنشطة اليومية إذ يطالع القارئ صورة لفتاة مغربية بلباسها التقليدي المتمشج الذي يتم من عفة وأنيقة مكونة، ومن ثم يجد القارئ على الصفحة التالية لقطاً نادرة سجلتها عدسة الكاميرا المغربي يذر الورد المتساقطة ذات اللون الأرجواني، وهكذا ينتهي القارئ من هذه الصورة التي سيفضها الكتاب بين طياته من ناحية فنية.



أما محتويات الكتاب من ناحية معلوماتية فلا تقل مستوى عن مستوى الصور الانطباعية، إذ يستعرض الكتاب أبرز ما يمكن للمرء التعرف عليه في المدن المغربية المهمة سواء كانت تقليدية أم حديثة، بالرغم من شحنة الكلمة، إلا أن الصورة تعني هذا النص بما يمكن أن توحى من مضامين بين ثناياها، و يبدأ بمدينة الرباط العاصمة وجولة في أرجاء المدينة تبين معالمها العمرانية الرئيسية بالإضافة إلى بعض أوجه من الحياة الاجتماعية بها، كما يستعرض الكاتب دراسة إقليمية جغرافية بالمغرب بناءً على طبيعة تكوينها الجغرافية فيقدم الأقليم حيث توجد المدن طنجة وأسبلة والهوسيمية، وتراوح الصور التي يقدمها هنا بين الاحتمالات الشعبية والأزياء التقليدية وبين نماذج من عمارةها، وفي القسم الثالث نجد الكاتب يتعرض لمدينة ذات صبغة دينية وهي مولاي ادريس وتطلع القارئ في البدء صورة بديعة لشيوخ مغربي يحرق الأرض فيما تبدو في الأفق وبين الأشجار (بانوراما) بديعة للمدينة، ولعل هذه الصورة تذكر البعض ببعض اللقطات لمدينة القدس من بعد من على جبل الزيتون، وتبين الصور أيضاً بجلاء مختلف الأقاليم بين الطبيعة الخضراء والطبيعة الصحراوية القاحلة، وكذا بعض الاحتفالات الشعبية في هذه المدن وحلي وزينة النساء التي تراعي العادات والتقاليد السائدة، أما مدينتا فاس ومكناس التقليديتان فلا يبدو أن الصور أو النص يمكن بحال أن تفيهما ما يستحقان من الإشارة رغم محاولة الكاتب ذلك، وعلى أية حال فإن الاستعراض يقدم نبذة توضيحية تعطي فكرة عامة غير متخصصة عن المدينتين.

وختاماً لهذه الجولة الشاملة لمن المغرب المهمة وإقليمها يرى الكاتب أن التعرف على ثقافة وعادات المغرب لا يكتمل إلا بتقديم أوجه من الحياة اليومية والمآكل والملبس بها، لذلك فقد ختم الكتاب بتقديم نماذج من الأكلات الشهيرة كجزء من تقاليدها، وأضعا بذلك الكتاب ضمن الكتب التي تعالج أكثر من مجرد العمران في المغرب بل يمكن أن يعد أحد كتب الأنثروبولوجي الذي يهتم أكثر من متخصص وليس المعماري أو الطالب فحسب.

بيوت بغداد التقليدية (أ)

ومنهم فتحي إلى المبل بان البيت البغدادي قد نشأ وتطور حول الفناء كمنظف فراغي غالباً وسطي تحيطه الأروقة، مما أدى إلى تبلور ونشأة ما يعرف ببيت (التارما tārma).

ويبدو أن سبب هذه الغرضية (مركزية الفناء ودوره في البيت) في البيوت ذات الأفنية منبجها سبب رئيسي: أولهما اجتماعي يفرض دور مركزي تجمعي وظيفي للبيت، وثانيهما مناخي يبيّن بتوفير الاتصال المنظم مع المحيط وبخاصة بالنظر إلى طبيعة التشكيل النسبي الحضري للمدينة وتلاصق البيوت وتجمعها، ويبدو أن هذا العنصر الفراغي tārma قد نشأ وتطور تاريخياً كمنظف اتقالي بين الفناء من ناحية وبين الفراغات الداخلية الأخرى على المستوى الأفقي من ناحية أخرى.

كما أن الدراسات التي تقترح مركزية الفناء اجتماعياً ووظيفياً لم تتحقق من مسألة مهمة في هذا الإطار وهي أن هناك أنواعاً من الفراغات التي تتواجد ضمن أي تكوين حضري: أولها الفراغات التي يمكن الوصول لها والحلول بها أو يمكن الوصول إليها والمرور عبرها فقط.

وثانيها: الفراغات التي تشكل بؤراً بصرية تلقف حولها الفراغات دون أن تشكل أهمية وظيفية خاصة، ولعل التقصي لمجموعة الفراغات المحيطة بالفناء وبخاصة في حال امتداد الفناء رأسياً على طابقين يمكن أن يفضح طبيعة هذه العلاقة النفعية الاعتمادية أو ربما التي تنقل الأهمية من الفناء إلى الفراغات المحيطة وبخاصة كونها مغطاة ويمكن أن تبقى من قبض الصيف وبرد الشتاء أكثر مما يمكن للفناء أن يفعله. وبهذا يسهل انطلاقاً من هذه الفكرة معاودة النظر في هذه الغرضيات التي تولى الفناء دوراً وظيفياً اجتماعياً، فيما تلقت الأضلاع إلى أهمية دراسة الفراغات المحيطة والدراك دورها وظيفياً واجتماعياً. وبخاصة لدى اعتبار عامل الخصوصية والعلاقة بين القاطنين والزوار. وكأنا ما كان اسم هذه الفراغات المحيطة بالفناء - إذ تبدو ذات طبيعة منظمة فراغياً داخل الأجزاء الداخلية للبيت - يبدو أن لها أهمية في هذا الإطار.

وبالنظر إلى مجمل التكوينات الفراغية للبيت البغدادي معزل عن التنوع للتشكيل حرقياً، يبدو أن البيت يشكّل فراغياً كالتالي: يتم الوصول للبيت عبر مجموعة من الفراغات الانتقالية المتتابعة والمتصلة بصرياً ووظيفياً حتى الوصول للفناء الذي غالباً ما يتوسط البيت، وأحياناً يحيط به مجموعة من الأروقة من أكثر من جهة والتي يقع على - tārma فوقها. وتشكل بعض فراغات الدور الأرضي ما يعرف بال-

tālar ويقابل الأيون في بعض عمارت شمال أفريقيا. أما في الدور العلوي الذي يتم الوصول إليه من خلال ادراج فيشكّل الـ tārma العنصر المنظم للانتقال إلى الفراغات الأخرى على مستوى الدور العلوي. وهكذا يبدو أن البيت يلف رأسياً حول الفناء المتوسط، مما يعني أطالة بصرية يتم التحكم بها لبعض الفراغات من المستويات بالطابق الأعلى وكذلك انفتاحاً مباشراً أو غير مباشر لفراغات أخرى على الفناء. وبعيداً عن الدراسات الوصفية التي تسارع إلى تبني وجهات نظر حول دور الفناء اجتماعياً ووظيفياً، يبدو من المناسب محاولة التعرف على موقع العناصر من حيث الأهمية وظيفياً وفراغياً دون اللجوء لهذه الدراسات الوصفية. واعتماداً على نظرية طورت حديثاً وتعرف بـ Space syntax والتي تعالج هذه المسألة إذ تتقصى رياضياً علاقات الفراغات ببعضها ضمن التشكّل الفراغي للبيت، سنحاول الفناء الضوء على تساؤلنا التالي: ما دور الفناء وظيفياً وفراغياً ضمن التكوين العضوي للبيت البغدادي؟ من خلال الإجابة على هذا التساؤل سننتقل لدراسة موقع ودور كل من الفراغات الأخرى التي تشكل التكوين العضوي الفراغي للبيت البغدادي، وهو ما يشكّل موضوع المقال التالي.

الصورة المرفقة: (عن كتاب البيوت التقليدية في بغداد)

د. وليد السيد

تعد البيوت التقليدية في مدينة بغداد والتي تطورت منذ الفترات المتعاقبة ما بعد القرن الثاني عشر من البيوت في العالم العربي التي تتميز بنمطية معينة من جهة، وبغنى ووفرة بعض المفردات المعمارية التي تشترك بها مع العديد من أنماط البيوت على مختلف أرجاء الوطن العربي من جهة أخرى.

فمن ناحية النمطية تتميز هذه البيوت من ناحية عامة بكونها تحتوي على أفنية تتوسط هذه البيوت، كما أنها تندمج مع التسبيح العمراني الحضري لتكون المدينة ككل. إضافة إلى ذلك فيتمتع التكوين العمراني الداخلي لها بأهمية تشكيلية منظمة تحكم نسجها الفراغي وأنها غالباً ما ترتفع على طابقين.

ومن ناحية أخرى تظهر النظرة الأولية احتواءها على عناصر ومفردات كالمدخل المتكسر والمشربية والقاعة أو الأيونات، أو فسقية الماء التي تتوسط الفناء، بالإضافة إلى قواعد بنائية عامة تحكم البناء

في العمارة العربية الإسلامية كالأعراف البنائية واستعمال مواد البناء المحلية المتوفرة وغيرها، ومن أجل عدم الوصول إلى نتائج مسبقة يسعي هذا المقال تالياً للمغالل الافتتاحي السابق إلى التعرف بمميزات وملامح البيت التقليدي لمدينة بغداد من ناحية، وكذلك التعرف على أنماط البيت البغدادي تمهيداً لمعرفة أوجه التشابه والاختلاف بين البيت العربي بعامة وبين الأقاليم تالياً والتحقق من فرضية وجود أو عدم وجود أكثر من (فكرة عامة) للبيت العربي والتي هي مدار بحث وتخصيص في إطار مسألة الأقليمية والمحلية. ومن أجل التعرف والفناء الضوء على ذلك فسيتم طرق هذا الموضوع على جزئين: ففي هذا المقال سنستعرض أبرز الدراسات التي ألفت الضوء على هذا الموضوع وذلك بدراسة خصائص البيت من نواح تكوينية تشكيلية، وكناج اجتماعي وكافران لمفردات وعناصر منظمة للعلاقات الداخلية.

أما في المقال التالي فنستطرد في التعرف على بعض الدراسات المبكرة، والتي يمكن أن تسهم في التعرف بأوجه التشابه والاختلاف محلياً وإقليمياً بين البيوت العربية التقليدية في بغداد وإقليمياً بين المدن العربية المختلفة وهو مشروعنا لما يلي من هذه السلسلة من المقالات حول البيت العربي.

لعل من أبرز الدراسات النظرية التي بحثت موضوع البيت البغدادي بشكل متكامل نسبياً ما نجده في دراسة الدكتور (إحسان فتحي) و(جون وارن)، والتي تطرق الموضوع ضمن عدة مستويات ابتداءً بتاريخ نشأة وتطور البيت في بغداد، ودراسة شكل البيت وعناصر تكوينه المأخوذة، ودور مواد البناء، وانتهاءً بالتعريف على التفاصيل المعمارية وأساليب الحفاظ الحضري لوقاية البيوت المتداعية من الاندثار نظراً لطبيعة المواد التي بنيت بها من أخشاب تتآكل أو طوب طيني يحتاج صيانة بمرور الزمن وتحت وطأة المياه من فيضانات وأمطار. ويبدو أن الدراسة (البيوت التقليدية في بغداد) هي من اشتملت على المستوى النظري، بيد أنها لا تقي بأدراك البعد من مميزات البيت والتطورات النمطية التي برزت تاريخياً، مع إعطاء فكرة جيدة متسلسلة عن البريت كوحدة اجتماعية من جهة، وبيئية عمرانية متكاملة مع المحيط من جهة أخرى، إذ فضلاً عن ذلك تبرز الحاجة ضمن إطار التعرف على الآلية الوظيفية التي تعمل بها فراغات البيت المختلفة ومنظومتها الاجتماعية من ادراك طبيعة العلاقات الفراغية المختلفة داخل البيت، وموقع ودور كل من هذه الفراغات بالنسبة لعلاقتها مع الفراغات الأخرى. ويبدو أن هذه الدراسات الوصفية التوثيقية لا تفي بهذا الغرض، إنما يمكن أن توفر الأساس لبناء فكرة عن مكونات البيت البغدادي.

واعتماداً على الدراسات التاريخية يبرز المفردون

المسلمات
في العمارة المصرية
القديمة

العمارة والفنون
النظرية في العالم
العربي والإسلامي

لوناورد - القاهرة

حتى بعد السوفاة إذ بنيت مبانيهم كالأهرامات لحفظ الأجساد بعد أن يتم تحنيطها، فيما ترمز المباني نفسها بعلاقتها الكونية مع حركات النجوم إلى العلاقة حيث تصعد الروح بعد الوفاة.

ولذلك فقد خلد المصريون القدماء مآثرهم ومعتقداتهم بكتابات ورسومات تركوها على هذه المسلات والتي تصل ارتفاعها إلى ٢٢ متراً، ومنها ما يصل وزنها إلى ٢٣٠ طناً.

ومن هذه الرسومات ما يمثل الرحلة إلى الدار الأخرى ومراسم التحنيط استعداداً لحفظ الجسد بعد مفارقة الروح. وبالرغم من اعتقاد المصريين القدماء بالحياة بعد الموت إلا أنها كانت مما لا يتفق وعقيدة الإسلام حيث تركوا في المداخل كالأهرامات ما غلا ونفس من لذائذ اعتقاداً منهم بحاجة الروح والجسد لهذه الماديات بعد الموت، مما جعل قيورهم عرضة للسرقاات الأثرية المتلاحقة عبر العصور لما فيها من آثار ومعادن نفيسة كالذهب وغيرها.

ولم تخل المسلمات من هذه الأطماع كونها بمثابة وثائق تاريخية تحوي كتابات ورسومات تكشف من غموض هذه الحضارة القديمة ومآثرهم ومعتقداتهم بطريقة حياتهم، ولذلك تنتشر العديد من هذه المسلات في العديد من الميادين بدول أوروبية ككلندن وباريس وروما، حيث تم نقل مجموعات منها على إثر الحروب الاستعمارية إلى هذه العواصم الأوروبية فهناك في روما وحدها أكثر من اثنتي عشرة مسلة مصرية.

ومن أشهر المسلات التي نقلت من موطنها الأصلي مسلة معبد آمون التي توجد حالياً في ساحة جيوفاتي بروما. أما مسلة كليوباترا الشهيرة فتوجد حالياً بلندن على نهر التايمز قرب منطقة (امبانكتن) وتم شحنتها عن طريق الإسكندرية عام ١٨٧٨م، والتي تحمل كتابات بالهيريوغليفية تعود لسلالة تحتمس الثالث، ورمسيس الثاني، وبلغ ارتفاعها حوالي ٢٦ متراً وتزن ١٨٠ طناً.

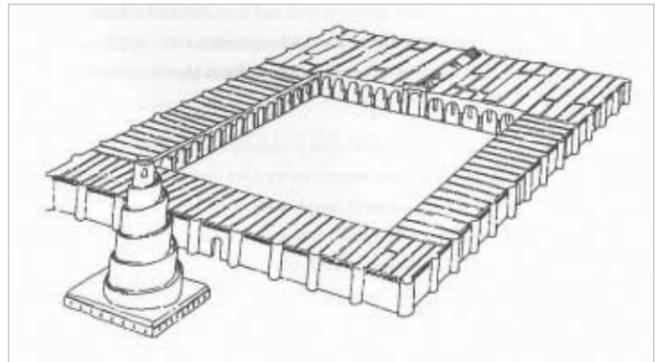
اشتهرت المسلات في العمارة المصرية التي تنشر على طول وادي النيل الممتد من القاهرة شمالاً وحتى أسوان جنوباً.

والمسلة هي عبارة عن عمود من الجرانيت الصلب والذي غالباً ما تم قطعه من المحاجر بجنوب مصر ومنطقة أسوان ونقله بالقوارب عبر النيل، ومن ثم يتم أقامتها عمودياً بطريقة بارعة بأنشاء تلال رملية محيطها وشدها بالحبال إلى أن تصل الوضع العمودي، وغالباً ما يكون مربع الشكل وذو نهاية هرمية مدببة، ويمتاز جسم المسلة باحتوائه أيضاً على قاعدة تقف عليها المسلة أما منتصف المسلة الحجرية فيحتوي نقوشاً ورسومات وكتابات معينة رمزية وذات دلالات تعبر عن انشاء المسلة والغاية منها فلماذا كان المصريون القدماء مغرمين بإنشاء هذه المسلات وما الغاية منها؟

تعد المسلات واحدة من مجموعة من العماائر التي انتشرت في عهد المصريين القدماء في زمن السلالات الملكية المختلفة التي تمتد لثلاثة آلاف من السنين قبل الميلاد بالتقويم الميلادي، وتنبثق هذه العماائر المختلفة من المعتقدات الدينية للمصريين القدماء الذين اعتقدوا بالحياة بعد الموت، ولذا فقد كرس العمارة التي شيدها هذه المفاهيم والمعتقدات، وتمثل المسلات بانتصابها نحو السماء هذه العلاقة تجاه السماء ومعتقداتهم بسمو الروح نحو السماء حال الموت. وقد تمثلت هذه المعتقدات في أكثر من صرح من المباني التي انشأوها كمثل الهرم المتدرج والذي تجوز زمنيًا إلى الهرم الرباعي لاحقاً، حيث تمثل هذه الأهرامات والمسلات وغيرها علاقات هندسية متكاملة مع حركات الأجرام السماوية، مما يؤكد من ناحية تطوّرهم بتكاملية التكوين والسماء والأرض من ناحية، إضافة إلى تقدمهم في علوم الطب والفلك والتي تستخدم معتقداتهم الدينية من ناحية أخرى فكانت مبانيهم لتجسيد وتأكيد علاقة الجسد بالروح

الجامع الكبير لمدينة سامراء
(سر من رأى) والمئذنة الملوية

من
بناجح
التراث



لوناورد - لندن

في تكاملية كونه، حيث أن الأبراج والذرات تدور في مدارات يعكس عقارب الساعة وكذا الأرض حول الشمس. مما يحوي دلالات على تكاملية العمارة والفكر المعماري للمسلم مع الدلالات الكونية المحيطة والاستجابة لها. وقد تم بناء مسجد ذي مئذنة ملوية شبيهة من قبل المتوكل أيضاً في وقت لاحق هو مسجد ابي دلف بسامراء. غير أن نسب المسجد والمئذنة كانت أصغر وبنيت بشكل مختلف، وفي عهد المالك تمت الاستعارة لهذه المئذنة المتميزة لدى بناء مسجد ابن طولون بالقاهرة حيث تحاكي المئذنة وكذا تكوين المسجد بشكل عام هذا المسجد الجامع الكبير في سامراء.

وما بعد أحد الأمور الملفتة للانتباه في عمارة هذا المسجد والتكوين الفراغي له هو أن الضلع القصير للمسجد متوجه نحو القبلة وكذا بالتالي الضلع القصير للواجهة مستطيلة الشكل أيضاً، وهو ما لا يتماشى مع فكرة الصف الطويل للمصلين، حيث أفضلية الأجر للصف الأول، وبذا تقليل عدد المصلين بالصف الأول وهكذا، وهذا التوجه نحو القبلة للمسجد منظمته الاستطالة بحيث يكون الضلع القصير هو صف القبلة مما لا نجده في غيره من بعض الأمثلة المسجدية في الفترة الإسلامية. مسجد ابن طولون الذي يراعى على الأقل الشكل الرباعي للمساحة الوسطية، وأبرز الأمثلة المسجد النبوي الشريف في فترة بنائه الأولى دون التوسعات والزوائد. أو المسجد الأموي بدمشق أو الجامع الأزهر بالقاهرة وكثير غيره من هذه الأمثلة، وعدا ذلك فما يزال المسجد يعد من أبرز الموروث العمراني لفترة العمارة الإسلامية في بلاد الشام في أوج كونها ونبوغها.

